بين العالمية والقومية

عجيبٌ أمر الانسان : انه كرّس القرون الطويلة خارجاً من نطاق دنياه ، هائماً بما وراء الحس ، باحثاً عن أسرار الغيب ، حالماً بالآخرة ، مفكراً بالخالق ، مغمضاً العين عن الخليقة وشؤونها فلم يتفرّغ لحياته الدنيا إلاّ بعد أن أنجز الأساس الذي ترسو عليه أصول حياته في الآخرة . إنه جدّ وكدّ في الأزمنة الخالية ليدرك أسرار عالم ما بعد الموت ، ولم يخطر له ببال أن يهتم بمصيره وكيانه على هذه الأرض ، ويتفهم جوهر العلاقة بين الأفراد ، وإيجاد الانسجام في الروابط التي تنبثق من كيانهم واجتماعهم . ومن يدري اذا كان الانسان على صواب إذ حاول أن يقيم الدنيا على أساس من الدين وأن يغرق منذ فجر حياته في خضم الغيب واللاّمحسوس ، ويسعى لاعتناق دين يلوذ به هرباً من هواجسه ومخاوفه وقلقه ، ويدأب للذّب بجرأة عن هذه العقيدة ، ويجد لنشرها خارج تخوم وطنه ، ويفتح بمبادئها قوماً غير قومه ، رغبة أو رهبة ، ولو أدى ذلك الى نشوب الصراع بين الجماعة التي يحدوها الحماس الديني والجماعة التي تأبى إلاّ التشبث بتراث قديم تقدّسه أجيالاً . ولعله أخطأ إذ آثر الغيب على الحاضر ، واهتم بتنظيم السماء قبل أن يبدأ بتنظيم الأرض ، وانزوى يتخيل سماء يسعد فيها نفسه بعد الموت ، دون أن يسعى لإزالة الشقاء الذي لا يزال ينصب على نفسه ، والعذاب الذي يتدفّق على بدنه ، والمساوىء التي يتجرعها ويورثها أعقابه . والمتأمل يرى البشرية قد قنعت بما تملك من الكنوز الدينية ، وباتت لا تحلم بمجيء رسل وأنبياء يكرّزون بالملكوت ، ولا تنتظر الكون يتمخض عن ولادة نبي جديد . ألأن الرسالات الدينية بلغت ذروة الكمال المطلق ، أم لأنّ الاختبارات المتراكمة قد برهنت على أن الدين لم ينقع غلة البشرية التي يحدوها الطموح ويحركها الطمع ، ولم يأتها بالترياق لتبرأ من أوصابها ؟ ولئن كانت الحياة البشرية وكل ما يمتُّ إليها بسبب قد صادفت صدوداً من الانسان

فيما مضى من الأزمنة ، فانها أصبحت شغله الشاغل في العصر الحاضر وديدنه وموضع تفكيره وعمل آماله . فإذا ما توعرت الأمور عليه ، وتراكمت المصاعب ، فلأنه حديث العهد بمعالجة القضايا التي يقوم عليها مصيره ، غير عالم بأسرارها وخفاياها . لقد ذهب البعض الى القول أن اكتشاف دوران الأرض ، والاهتداء الى نظرية التطوّر وأصل الانسان ، قد خدشا الكبرياء الانساني في الصميم وأنزلاه من عليائه فقد نصت النظرية الأولى أنّ الأرض التي يحيا عليها ليست مركزاً للكون ، والنظرية الثانية أظهرت له بوضوح وجلاء أنه ليس أسمى أصلاً من الدودة ، وليس أنقى طينة من سائر الحشرات والهوام . هذا العصر الذي شهد ولادة هاتين النظريتين وانتشارها ، شاهد ظاهرة في التفكير لم تخطر ببال . هذا العصر شاهد انصباباً كثيراً من الانسان على الانسان وعلى كل ما يتعلق به ، واختلفت النظرة عن ذي قبل ، فهو مهما كان أصله ولونه ودينه وموطنه وطبقته ، نقطة الاهتمام ومركز الكون ، وموضوع كل بحث ورائد كل رأي ونظرية . هذا الولع الشديد بالانسان والسعي لاستكناه حقيقته الجسدية والنفسية ، والرغبة في إيصاله الى محجة الخير والفلاح ، والاختلاف بالوسائل والغايات ، لم تشهد له العصور السالفة نظيراً . هذا التكلف بتحديد مركز الانسان في الكون ، وتنسيق العلاقات المتنوعة المتشعبة بين أفراد المجتمع الواحد أولاً ، وبين المجتمعات المختلفة ثانياً ، هو باعث القلق الذي ينتاب العالم اليوم ، وأس الخلاف في الآراء وتضارب النظريات . انه يكافح اليوم ويناضل لا في سبيل مبادئ هبطت إليه من السماء الأولى أو السابعة ، بل انبثقت من صميمه وعبرت عن رغباته وتلوّنت بطبيعته البشرية . ولأوّل مرة أصبحنا نرتقب انقلاباً في المفهومات يسفر عن الحروب .

في هذا العصر الذي أصبح الانسان وسيلة وغاية ، بلغت الحيرة الأوج . انه عاجز عن انتهاج خير السبل لأنه عاجز عن ادراكها وعاجز عن إيجاد الحل الملائم لمشاكله وعاجز عن تمييز المفاسد التي ينبغي عليه أن يتجنبها . إنه لم يبلغ المطلق في السنن والنظم التي تمخض عنها ذهنه وتولدت من تراكم اختباراته ، وإنها لن يبلغ بها نهاية الشوط مهما عدّل ونقّح ومهما غربل ونقى ، ما دام يحمل علائقه البشرية الموروثة والمكتسبة وخصائصه المتركزة في أغوار نفسه . كالعجينة الطرية في اليد تصنع منها ما تشاء من الأشكال . هكذا تبدو

البشرية للمراقب المتأمل في سياق تاريخها الطويل تكيفها البيئة والاحداث وتطور الفكر، ويكيفها الأفراد العباقرة وفق ميولهم ومثلهم . وما برحت البشرية منذ أقدم العصور حتى الآن ميداناً لتجارب الآراء التي تتمخض منها أدمغة الرسل والفلاسفة والمفكرين . إنها تشبه من بعض الوجوه الحيوانات التي تتخذ وسيلة لامتحان المحاولات العلمية . والفرق بينهما أن الحيوان في نظر الباحث مجرد وسيلة ، أما البشرية في عرف المصلح الاجتماعي فهي هدف وغاية . إن العالم لا يرمي الى سعادة الحيوان من وراء هذه التجارب ، لكن المصلح القائد يتوخى قبل كل شيء عز الجماعة ونقلها من حال تدفق بها الى أخرى أكثر نعيماً وأوفر سعادة . والغريب أن يزداد القلق وتشتد الحيرة وتتشعب السبل وتتنوع كلما توغلنا في الثقافة وإستشرفنا الحضارة ، ويعود الهدوء وتنتفي أسباب الخلاف والخصام كلما عدنا أدراجنا نحو البساطة في الوسائل والغايات . فكأن المصاعب قد باتت حليفة لقضايا العصر الحاضر ، ولم يتعمد الانسان خلق الشقاء ليلهو به أو ليبلوه ، بل أنه انبثق عن طبيعة النظم التي يدير موجبها وعن الأهداف التي تنافي سليقته ومثله العليا واختياراته . وإذا ما رأيناه يبحث بإلحاح وقلق عن مخارج لما تشكل الأمور وتقع الشبهة ويتلمس سبل النجاة ، فلأنه يشعر بالخطر الذي يحيق به ، ولأنه لم يعد يستطيع الصبر على المفاسد من أي نوع كانت ومن أي مصدر جاءت ، ولأنه أخذ يشعر بمسؤوليته تجاه ذاته وتجاه أمته .

ولئن اتفقنا على القول ان العصر الحاضر يتميز بتنوع مصاعبه ، وتعددها ووفرة مشاكله وصعوبة حلها ، فإنا نختلف كثيراً عند ما نحاول تعليل الأمور تعليلاً صحيحاً ، وتفسير الأسباب التي كانت أساً لجلة ما نعاني وما نتجشم . في إمكاننا أن نفاضل بين مخترع وآخر ، ونقايس بينهما من حيث الفوائد التي نجمت عن كليهما على وجه يقرب من العلم ، ونتصف أحكامنا بالصدق أينما نظر إليها بعين التجرد . أما القضايا الاجتماعية فإن بحثها من أوعر البحوث وأكثرها تعقداً وغموضاً لوفرة وجوهها وشدة تنوعها فلا تمنح الدارس متكأ يتكئ عليه باطمئنان وليس في وسع الباحث الاجتماعي أن يتحن الأحكام التي توصل إليها ليتبين الزائف من الصحيح ، بل يتحتم عليه أن يمكث يترقب حصول الأعراض التي تأتي بها مناسبات ليست في الحسبان ولا تخطر على البال . ولو كانت المجتمعات البشرية مكونة

من أفراد بَشَر ، تجردوا من الحرية والاختيار ، وتشابهوا في الخصائص والميول ؛ لقلنا أننا خاضعون لنواميس مطلقة لا تتذبذب

* * *

يقول البعض أن نظام القوميات الذي ساد العالم منذ أقدم العصور قد كان من أهم العوامل التي أدّت إلى تفتيت شمل المجتمع البشري لما سبب من حروب متصلة الحلقات في ماضي التاريخ وحاضره . وان البشرية لا تستمرئ طعم الراحة والطمأنينة إلاّ إذا طلقت مبدأ القوميات وتحوّلت بكليتها إلى النظام العالمي الذي يرمي الى صهر القوميات في بوتقة واحدة تموت فيها كل الدواعي التي تولد التنزع والتمايز ، وتؤدي بالتالي الى التصادم والتطاحن في سبيل البقاء والحصول على خيرات الأرض والتلذذ بها . ومبدأ الدولة العالمية يبغي كسر الحدود والحواجز ليجعل الجماعات البشرية شعباً واحداً لا يتطاحن في سبيل العيش بل يتعاون ويتكافل .

ولنا أن نتساءل : هل في التاريخ أو في واقع الحياة ما يؤيد مبدأ الدعوة الى العالمية أم ان في التاريخ والواقع ما يؤيد مبدأ القوميات الذي يسود في العصر الحاضر ؟ ان فكرة انشاء دولة عالمية وجعل العالم أسرة واحدة حلم من ألذ الاحلام وأمنية من أشهى الأماني ، وهي ليست حديثة العهد بل إنها قديمة ، ولم تنفرد الهيئات السياسية بالدعوة إليها والسعي لتحقيقها ، بل ساهمت الهيئات الدينية بنصيبها في هذا الامر ، ولئن تكن الفكرة قديمة فذلك لا يضفي عليها حلة من القداسة ولا يبرهن على أنها قابلة للتحقيق . ولئن دلّ قدمها على شيء فانما يدل على نزوات طارئة وأطماع عارضة ، وآمال تغذيها الاوهام والخيال الجامح وهي تشير بوضوح الى درجة الفهم في أصحابها : إنهم توهموا البشرية كُـلًّا لا نوعاً !!.

كان أنبياء اسرائيل يركّزون بالعالمية ، وتخيلوا أن هدف الجنس البشري في سباق تطوره أن تجتمع الامم بأسرها في هيكل صهيون في ظل عقيدة دينية واحدة . وادعت الكنيسة الكاثوليكية أن روما عاصمة العالم ووادعة الكون » . وأكثر ما تركزت النزعة في القبض على زمام العالم في أقوال البابا بونيفاس الثامن (١١٩٤) : « . . . نصرّح إذاً ونقول ونقرّر ونفسّر أن خضوع كل مخلوق بشري للحبر الروماني ضرورة يقتضيها الخلاص » وكان شعار فريدريك الثالث ملك النمسا Austria est imperare orbi universa = A. E. I. O. U.

أن السلطة على العالم خاصة بالنمسا » وكان شارل الخامس يطمح الى السيادة العالمية وكان يقول : « دائماً الى الامام » . ولقد راود هذا الحلم خيال نابوليون ، فكان يطمح ليصبح الرئيس الأعلى للقارة الاوربية ، يهب قواده الممالك والأقاليم ، متخذاً بطانته من الملوك ولا يكون البابا أكثر من وكيله الروحي وتصبح باريس عاصمة العواصم . وكان يتأسف لأنه أتى في زمن متأخر ولم يخلق في العصور الحوالي ! . وانما نعلم الآن مصير تلك الاطماع التي جاشت في صدور أصحابها ، ونعلم أنها منيت بالإخفاق دون أن تكتب لها الحياة ، سواء تلك التي تفوّه بها قادة روحيون أو حنّ اليها قادة زمنيون يريدون اخضاع المستحيل وتحقيق ما تأباه الحياة .

إن التاريخ لم يسجل في صفحاته تحقيقاً للنظام العالمي وليس هناك ما يشير الى أن العالم سائر نحو هذا النظام الذي يفسخ من الاذهان فكرة الأوطان ومبدأ القوميات . وإذا ما أخفقت جميع المحاولات لتوطيد دعائم هذا النظام ، فلأن الانسان لا يسير بوحي من غرائزه البشرية وخصائصه الاجتماعية، بل يبحث عن علاج يداوي به أسقامه وعلله ويسعى علّهُ يهتدي الى مخرج يقيه شر الحروب والخصومات . إن نظام العالمية رأي يلبث في الحقول الاشتراكية والفوضوية وليس طريقاً للاتجاه الانساني الأصيل . هو رأيٌ يحل الطبقة محل الأمة والمجتمع . انه يزيل الحدود بين الشعوب ليقيم عوضاً عنها حواجز بين الطبقات التي يتكوّن منها المجتمع . فلا يتحدث التاريخ عن الحروب التي تقع بين الأمم بل يروي لنا قصة النزاع الطبقي . والبشرية في هذا لا تكون خطت خطوة واحدة نحو السعادة والسلام. ودون تحقيق هذا المبدأ وازالة مبدأ القوميات صعوبات لم يخلقها البشر ولم تنبثق من ارادتهم بل نشأت بارادة الحياة وقوتها ومن طبيعة الارض التي تأهلها ، فالبشرية تتكوّن من سلالات مختلفة تعيش في بقاع أرضية محدودة بحواجز طبيعية ، وتتكلم لغات غريبة ، ولا تدين بعقائد دينية واحدة وتخضع لعوامل اقليمية متفرقة ، وتعيش في حالات غير متشابهة من الوجهتين الاقتصادية والثقافية .

واذا كان التاريخ لم يسجل في صفحاته سابقة للدولة العالمية ، فانه لما يلمع في الجوّ بريق للوجدان العالمي . ولا تشكو البشرية لأنها لم تتمكن من تكوين دولة واحدة يعيش مراطنوها

على قدم المساواة ، بل تذكو نفرها في الدواعي الموحدة الجامعة ، وتذكو عقيدته الذي لم يتح لها أن تلد سلائق جديدة . اذ عوامل التفرقة والتمايز متجسدة في اللغات والأجناس والديانات والأوطان والعروق والأعمار . فاذا شئنا اتحاد وحدة عالمية فينبغي أن نزيل كافة الأسباب التي تعرقل هذا المسعى وتجعل التنوع مستمراً . ينبغي أن لا يتنام البشر إلاّ بلغة واحدة ، ويصبح لونهم واحداً ، وتتجانس التضاريس الأرضية ، والمظاهر الاقليمية وتقضي على مميزات الجنس وتجعل الدين غالباً لأنه ما برح من أعظم الأسباب التي تؤدي الى التفرقة والتطاحن والتصادم . ان نظائر رهيبة رافقت ظهوره وانتشاره ، وحروباً وحشية دامت طويلاً . انبثقت عنه ، وحدا بكثير من الجماعات أن تنكمش على نفسها وتتعصب لمقدسها وتمقت كل من لا يدين بدينها . ويستحيل على الجماعات البشرية أن تلتقي على صعيد واحد وتعتمد ديناً واحداً شاملاً .

يقول البعض إن الانسان قد تدرج من الفردية الى الأمة ماراً بالعائلة فالعشيرة فالقبيلة فالأمة . والانسان الذي جاز هذه المراحل خلال تطوره المستمر يستحيل عليه أن يبلغ المرحلة العالمية وهي المرحلة الأخيرة . فليست هذه التجمعات سوى دوائر متمازجة في الجوهر متفاوتة في السعة والشمول . وفي إمكانه أن يتدرج في ولائه كما تدرج ... في مراحل اجتماعه . وقد فات هؤلاء أن الولاء المتبادل بين أفراد الجماعة القومية الواحدة طبيعي ليس اصطناعياً وليس وليد القوة والتكلف ، إنه منبثق من صميم الحياة المشتركة ومن ينجم عن الاشتراك في دورة الحياة الواحدة من وشائج معنوية ومادية . إن الاتصال بالجامعة القومية التي وحدتها الحياة في الوطن واللغة والمنافع الاقتصادية وحلتها بالتسامح الاجتماعي ومكنتها من التفاعل البدني ووحدت مثلها وحدت بها للمساهمة يداً واحدة في بناء حضارتها وأمجادها وصوغ تاريخها ، إن هذا الاتصال عضوي لا بل قسري تفرضه ضرورات الحياة ذاتها . أمّا الخروج الى رحاب الكون ، والتحليق فوق الفواصل المادية والمعنوية ، والتحرر من الغرائز الاجتماعية التي تعمل على تراص المجتمعات القومية فهو من أطوار الرسل والأنبياء فقط . وما أندرهم في كافة العصور والأمم

ولا يزال النظام العالمي فوق المثال والمطامع لأنه لم يجد نظاماً يكيف سلوك البشر

ويوضع على المحك ليظهر غثه من ثمينه وخيره من شره . وهو اذا كان مفيداً للجماعات القوية المنظمة التي اكتمل وعيها فانه ويلٌ على الجماعات التي لا تزال في أول الشوط . إن بث هذه المبادىء في عالم تحركه الانانية والمطامع ، والتشدق بالمساواة والانسانية مع عدم الايمان بها مطلقاً يغرّر بالأقوام البسيطة القلبة الخيرة ويحول دون نشوء أية نهضة قومية ويولد التواكل واللامبالاة .

ويخطىء من يقول ان بقاء مبدأ القوميات رهون ببقاء الطبقات « العليا » المكونة من الرأسماليين ورجال السياسة والعمل ، وإن الأوضاع الحالية مناقضة لأماني الجماهير الشعبية وإن هذه المساوىء ستزول حتماً عندما تؤول الأمور الى يد الطبقة العاملة . وفات هؤلاء أنّ هذه الطبقة ليست سليمة من جرثومة النزاع ، وأن هذه الجرثومة كامنة في بنيتها ، فالنزاع العرقي كائن في صفوف العمال ، والدليل على ذلك ما يلقاه العمال الصفر من المصاعب والاحتقار في الولايات المتحدة وغيرها ، وهناك تحاسد ونزاع خفي بين العمال المتطرفين والمنبوذين ، ولا ينفك الاضراب يحدث في صفوف العمال ضد الجماعة العاملة الأجنبية التي تزاحمها على القوت في عقر دارها . وإن النظام الذي تمخض عنه القرن العشرون والسائد في الدول الشيوعية ليس بالنظام العالمي المرجو ، وليس بالترياق الذي يشفي البشرية من أوصابها وعللها المزمنة . انه محاولة فذة لكنها ناقصة جاءت في غير أوانها أو قبل تمامها . ولهذا فانه مني بإخفاق لا نظير له ولا عبرة في التفوق الاقتصادي أو العسكري . لأن مقارنة بسيطة تعقد بين نتائجه وثمار العالم الرأسمالي الذي يسعى لتحطيمه تدحض هذه الحجة وتئدها في مهدها . ففي النظام الشيوعي الذي يروّج له الدعاة أنه النظام العالمي المرتقب لم تتوفر الضمانات الكافية التي تصون حقوق الانسان في الحياة والحرية ، ولم يتوفر الجوّ الصالح لنموّ مواهبه وكفاياته وانطلاق انسانيته . ان الدولة قد طغت على كل شيء وتسرّبت الى كل ناحية وتركزت القوة في يدها وجعلتها أساساً وشرطاً لدوام حياة النظام . لقد تفتقت التجربة الشيوعية عن طغيان الجماعة على الفرد وسلب حقوقه واستباحة وجوده ونشاطه . إن صورة الحكم في روسيا الشيوعية قد تبدلت ، لكن الجوهر ظلّ هو هو ، كما كان في عصر القيصرية . لقد كانت السلطة المطلقة بيد فرد . أما الآن فإنها آلت إلى الحزب . كان الملك يحكم

باسم الحق الالهي ، أما الجماعة فانها تتوسل الوصول الى مآربها بمبادىء تدفع الشعب لاحتثاثها والخضوع لها بقوة الحديد والنار .

اذا كانت العالمية ليست تعبيراً صادقاً عن الغرائز الاجتماعية وليست مرحلة نهائية لتطور البشرية ، فهل تكون القومية ثمرة العلائق البشرية الموروثة ، والغاية التي يهدف التطور ؟

اتفقت معظم الآراء على القول إن العصبية القومية بزغت في القرن التاسع عشر وأنها إحدى ثمرات الثورة الفرنسية . إن الحصر في القضايا الاجتماعية لا ينسجم مع مناهج البحث الصحيح . فالقومية ليست خاصة بشعب دون آخر ولا يمكن حصرها في زمن معين . فما من عصر خلا إلا تجلت فيه هذه النزعة على درجات متفاوتة من الحرارة والوضوح ، وما من شعب إلا عبر مراراً وتكراراً عن هذه الروح الكامنة في سويداء قلبه . إنها ليست حدثاً طارئاً لا يلبث أن يزول بل إنها ميول أصيلة في النفس إنها ارادة جامحة موحدة لآمال الجماعة وآلامها . إنها شعور يخالج الأفراد أنهم يتميزون عن سواهم في الخصائص والغايات ومستقلون عنهم في الشخصية والمصير . انها لا تقوم على ميزات بدنية ولا فروق سلالية ولا على عقائد دينية . انها بوتقة تنصهر فيها الفروق المتباغضة والعقائد المتنافرة والطبقات المتطاحنة . وانك لتلمس هذه النزعة في الاقوال التي تعبر عن الحنين الى بقعة من الأرض معلومة محدودة أو الى جماعة معينة من الناس . وهذا الحنين الذي ينضح عن النفس المشوقة وليد التفاعل مع البيئة . وتتجلى هذه النزعة في الأوقات العصيبة التي تمر بها الجماعة وتهدد كيانها ومصالحها . فتعقد الخناصر عندئذ على الموت معاً أو الحياة معاً وتهب للدفاع عن تراث وصيانة أرواح وأموال . وتتجلى أيضاً في اشتياق الجماعة الى الخروج من الوطن والانتشار في أرجاء الأرض . ان نابليون لم يفجر الماء من الصخرة بل أنه نبه الأقوام في أوربا أن فجر عصر جديد قد لاح . ان الشعوب قد استفاقت تحت وطأة الزحم وعلى وقع حوافر الخيول التي كانت تعرف في أوربا تحمل بذور الثورة ولكن تغير المفهومات وتبدل . لقد كنا الى وقت قريب نحسب تلك البذور أفضل ما تمخضت عنه البشرية لأنها ميزت الشعوب بالقوانين بدلاً من الامتيازات التي كانت وقفاً على طبقة دون أخرى ، وحررتها من نير العبودية الذي طال ثواؤه على أعناقها . والآن نقول ان كل ما نقاسيه من آلام وما يحل بنا من كوارث وأهوال قد نبتت من تلك البذور .

لقد شاهدت القرون الوسطى نزعة ترمي الى جمع العالم المسيحي في مجموعة ترتكز على الدين فقط . لكن هذه النزعة ما لبثت أن اعتورها الضعف وبدأ التفسخ يتسرّب اليها . فان الوحدة في المعتقد الديني لم تثمر التعاون والسير جنباً الى جنب باستمرار . لقد كانت نهاية القرن الثالث عشر للميلاد خاتمة الحروب الصليبية وكل حرب دينية على الاطلاق . لقد انقلبت الحرب من نصرانية الى قومية تعلن باسم الجماعة القومية التي تعلنها وتغذيها بالمال والدماء . فطفق كل شعب يميز بينه وبين غيره ، ويفرق بين مصالحه ومصالح سواه ، وحلت مصلحة الأمة مكان مصلحة الطائفة الدينية . لقد كانت الغاية من الحروب الصليبية انقاذ بيت المقدس من يد جماعة اسلامية ، أما الحروب في العصور القومية فترمي الى الحصول على المناطق التي تتوفر فيها مصالح حيوية . ويرى البعض أن هذا التحول من الفكرة الدينية الى الفكرة القومية عوضاً عن الفكرة العالمية أس الفوضى التي تسود العالم اليوم ، والأخطار التي يتأذى منها البشر ولكي نقضي على الفوضى ونزيل الأخطار يجب علينا أن ننسف المؤسسات الدولية التي تقوم على فكرة القومية التي كانت مهداً لشرور ومساوىء كثيرة .

* * *

إني أتساءل : هل الشرور التي نصلى عذابها من حروب تزهق فيها الأرواح وتدمر مرافق الحياة ، وبغض يقصي الفرد عن الفرد ، وضيق ينغص العيش . . . هي وليدة مبدأ القومية ، أم انها ثمرة المفاسد الملازمة للطبيعة البشرية ، وثمرة النظرة الفاسدة والخاطئة للقوميات . إننا أسأنا الظن بالقومية وحملناها وزر كل الشرور ، ونعتناها أشنع النعوت . إننا لم نبلغ بالقومية المرحلة التي نتوخاها لها من الصفاء والسمو ، ولم نعهد إلاّ نوعاً واحداً من القوميات المتطرفة ، القائمة على تأليه الدولة ، الراسية الى الحضيض على المنازعة العنيفة ، الموغرة الصدور بالبغض والحقد ، المتركزة على فكرة تمجيد الجنس الراضية عن السطو على الضعيف المفتخرة بالنزوع الى العدوان والسيطرة كرهاً على العالم وامتصاص خيراته ، إن القومية المثلى لا تخنق الانسانية في الانسان وباستطاعة المرء أن يحيا حياة قومية ويتزع نزعة انسانية . فكما انه بامكاني أن أكون فرداً في أسرة أعمل لخيرها دوماً ، يمكنني أن أكون عضواً في شركة أو موظفاً أو تاجراً أو عاملاً أو جندياً ، وأساهم في مؤسسة دينية وسياسية

والجماعية وأكون في نفس الوقت مواطناً في دولة . ويستحيل على جماعة قومية تدرك مصالحها وتريد الخير لأعضائها أن تقف حائلاً بين أفراد وطنها والعالم الخارجي ، وتقضي عليهم أن لا يساهموا في عملية الأخذ والعطاء والانفتاح لسائر التيارات الفكرية والعلمية وألوان النشاط الأدبي التي يزخر بها العالم . إنها تتبنى كل تراث بشرط أن يكون ملائماً للحياة الجيدة الجلية . ولا تغني تراثها كما يفعل البخيل بالأموال التي تتجمع لديه ، وتبيح لأعضائها أن لا يبتعدوا عما يحدث في العالم بل أن يشتركوا فيه بشرط أن لا ينجم عن هذه المشاركة ضرر ينزل بالأمة التي أدين لها بكياني ومصيري ، ويتعلق بمصيرها . فلم يحل النظام القومي دون اقتباس أية ثقافة بشرية وتعلمها أو ترجمتها ، ولم يتنكر لطرق المواصلات ولا المكتشفات الجغرافية والمخترعات .

* * *

يأخذون على النزعة القومية انها عجزت عن السمو بالانسان الى درجة التجرد من الأهواء ، والى إيثار الحق اطلاقاً . اننا لم نبلغ هذه المرحلة من التجرد من الفوارق الاجتماعية لا أفراداً ولا جماعات ولم يقع بيننا هذا التكشف بالحق المطلق ، ولم نصل الى مرتبة « اوطيفرون » الذي ينوب عن القتيل في اتهام ابيه القاتل . اننا لا نحجم عن نصرة آبائنا ظالمين ومظلومين وتسير هذه النزعة لاحقة بنا مصاحبة لميولنا كمواطنين ننتمي الى شعب معين وننتسب الى وطن معلوم . فليس النظام القومي مسؤولاً عن عدم بلوغنا درجة الكمال، بل الجبلة البشرية هي التي توجهنا وتكيف ميولنا . أفلا يتباغض ويتطاحن ويتنافس أبناء الوطن الواحد ، وتنشب الثورات الداخلية ، وتوجد الطبقات المختلفة ؟ فالروح العدائية ليست وليدة النظم السياسية السائدة بل وليدة المتحدات التي أوجدتها الطبيعة .

ومهما كابر المكابرون فانهم لا ينكرون أن أسمى المبادىء نمت في تربة القومية . ان القومية أخرجت الفرد من صدفة الأنانية الضيقة ومهدت له السبل للتفتح والاندماج . انها تسعى لكسر القيود الطائفية البغيضة التي تحول دون التحابب والتسامح الاجتماعيين وحاربت الامتيازات الطبقية بغية توفير السعادة للجميع ، وزينت لمريديها التخلي عن المآرب والأهداف الصغيرة التافهة والاقبال بغبطة على الخدمة العامة .

إن الدعوة الى انشاء دولة عالمية ليست إلاّ « يوتوبيا » ، وإنما رأي من جملة الآراء التي تمخضت عنها الأذان بكثرة ما حاق بالبشرية من أخطار وما حلّ بها من كوارث . وان هذا الحل الذي تقترحه جماعة ليس بآخر ولا بأفضل حلّ . وان من يتأمل سير البشرية خلال مراحل طويلة شاقة لا ييأس ولا يتشاءم بل إنه ينتشط ويتفاءل . إن جهودها المتذهب حيناً وأتعابها جاءت بأشهى الثمرات . أليست الكنوز التي عثرنا عليها وأخرجناها للنور والهواء وطفقنا نستمتع بها وليدة ذلك التنوع البشري الناجم من مختلف المتحدات وناشئة من النظام الذي نحاول نسفه ؟ وهل بوسع الدولة العالمية المرتقبة ان تتبرأ مما حققته المجتمعات القومية التاريخية وتحوم بفساده جملة وتفصيلاً ؟ وإذا ما شاءت القضاء على التراث القديم بحجة انه تفتق من أمم قومية وصبت عليه الزيت والنار ، فعلى أي الأسس تنوي أن تقيم صرح حضارتها ؟ أتعود القهقرى نكاية الى بدء الطريق لتستأنف السير ؟

ظن كارل ماركس أن الناس سيجردون الأرض لأنها سوف تصاب بالجدب لتتالي الحراثة ولاستثمارها بدون انقطاع . لقد خاب ظنه ولم تصدق نبوءته . فالأرض لا تنفك أبداً تستعيض ما فقدت . وهل كان يدور بخلده ان الانسان سوف يتوصل لصنع مواد مخصبة يمد الأرض بها فتتضاعف خيراتها ؟ وهل كان يحلم ان العلم سوف يمد الانسان بما لا يحصى من المواد الغذائية الاصطناعية ؟

* * *

إن هناك كنوزاً عظيمة من الخير والحق سنعثر عليها في اثناء التنقيب والبحث . فالتعب لن ينال من العامل والبشرية تظل بكراً أبداً . اننا لسنا مضطرين لنسف هذه المتحدات القومية التي ينبثق عنها التنوع ومن التنوع يتولد الجمال . وهذا التنوع كمّاً ونوعاً ، ليس من شأنه أن يعرقل سير الحضارة . انه لا يختلف من السلم الموسيقي الذي تنشأ عنه أصوات متفاوتة القوة مختلفة الجرس ، لكنها منسجمة غير متنافرة ومتناغمة تطرب الأذن وتسر القلب

(صافيتا — سوريا) الياس يعقوب